المفاجأة

حقوق الطبع محفوظة

طبعة مزيدة ومنقحة

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

الطبعة الثانية

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

رقم الإيداع : ٢٠٢٢/٣٥١٧

الترقيم الدولي : I.S.B.N

٩٧٨.٩٧٧.٣١١.٧٤٩.٨

قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾

[ق: ٢٢]

المفاجأة

مجدي الهلالي

بسم الله الرحمن الرحيم

ربِّ يسِّر وأعِنْ يا كريم

رحلة الحـــياة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.. **أما بعد:**

فعندما نجتمع مع أقاربنا ومعارفنا في مناســبة من المناســبات فإننا نجد فيهم الطفل الصغير، والشيخ الكبير، ونجد كذلك الفتى والشاب والكَهل .. فإذا ما تقابلنا في مناســبة أخرى بعد عِدَّةِ سنوات سنجد أن الطفل قد صار فتًى، والفتى قد صار شــابًّا، والفتاة تزوجت وأنجبت، وأن هناك من كبار الســن مــن انحنى ظهره، ومــن كَلَّ بصرُه، ومن لا يستطيع المشي إلا مُتَّـكِئًا على عصا، ولا نُفاجَأ إذا ما أُخبرنا بموت أحد هؤلاء الشيوخ.... فأي دلالة يحملها يا تُرى هذا المشهد؟!

ألا يــدل ذلك على أن هناك حركة نمو تحــدث للناس جميعًا؟ وأن الكل مستسلم لها لا يمكنه إيقافها، أو تعطيل مسيرتها؟ وأن هذه الحركة

ملازمة لحركة الزمن؟

نعم، أخي، فكل البشر يتحرك للأمام مع حركة الليل والنهار.

ولكن إلى أين؟!!

إلى النهاية.. إلى الموت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فجميع الخلق في شتى بقاع الأرض يتحرك نحو راية واحدة، ويقطعون إليها المسافات بمرور الزمن فكلما مرّت دقيقة اقتربوا أكثر من الراية، سواءٌ كانوا منتبهين لذلك أو غافلين.. ناسين أو مُتَذَكِّرين، راضين أو معترضين.

هذه الحقيقة لا تحتاج إلى كبير عناء لإثباتها، فيكفيك أن تتأكد من ذلك إذا ما بحثت عن صورك الفوتوغرافية منذ الولادة وحتى قراءة هذه الكلمات، وأن تقوم بترتيب هذه الصور بطريقة تصاعدية في العمر، فستجد أنك تتغير وتنمو وتكبر، فإذا ما تخيَّلت نفسك بعد ذلك ورسمت صورة لهيئتك بعد عشرين سنة أو أكثر... فستصل إلى الحقيقة التي تعرفها جيدًا: بأن الموت نهاية كل حَي.

أخي: إن رحلة الحياة ماضية في كل لحظة.. ماضية تتحرك للأمام وأنا أكتب هذه الكلمات، ماضية وأنت تقرؤها.. فالزمن يمر، والمسافة

تقصر، والموت يقترب..

ولكن هل الموت هو نهاية الرحلة أم أنه الراية التي نراها ولا نرى ما بعدها؟!

الموت هو نهاية رحلة الحياة على وجه الأرض، ومن بعده يمر المرء بأحداث جِسام يكون فيها لقاء الله عَزَّوَجَلَّ فيحاسبه على ما فعل في هذه الرحلة، فإن كان خيرًا فسيفوز بموعود الله وجائزته التي وعد بها الطائعين، وإن كان شرًّا فسيلقى جزاءه الأليم... « **يَا عِبَادِي؛ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ، أُحْصِيهَا لَكُمْ ثمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيراً فَلْيَحْمَدِ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِك؛ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَه** »(١).

فحقيقة رحلة الحياة أنها رحلة إلى الله: مِن عنده بدأتْ وإليه تنتهي: ﴿ **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٩].

إنها رحلة الرجوع إليه سبحانه: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**﴾ [السجدة: ١١].

رحلة العودة والحساب: ﴿**مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**﴾ [الجاثية: ١٥].

فهل لك أيُّها الإنسان أن ترفضَ السيْر والعودة إلى الله؟!

---

(١) جزء من حديث قدسي رواه مسلم (٤/ ١٩٩٤ برقم: ٢٥٧٧).

..ولكن كيف؟!!

ماذا ستفعل؟! هل ستلجأ لكون آخر؟ وهل هناك كون آخر؟!

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٠ - ١٣].

بداية الرحلة

تبدأ -فعليًّا- رحلة السير والرجوع إلى الله عند البلوغ وبَدء سن التكليف، وتستمر حتى الموت، ولئن كانت مسافات الرِّحلة تُقدَّر بالزمن فإن ما يحملنا فيها هي أجسادنا، فالجسد يُعَد بمثابة الدابة أو المركبة التي نستقلها؛ لكي نصل إلى نهاية الرحلة في الدنيا.

لنتخيل -أخي- هذه الرحلة وكأنها تمر بطريق يركب فيه كل فرد دابة، ويسير الجميع في اتجاه واحد نحو راية وهدف محدد.. ألا وهو الموت!!

لو تخيَّلنا هذا المشهد وتعمَّقنا فيه، وقُمنا بإسقاطِه على الواقع فسنرى بعيْنِ الخيال مشاهدَ كثيرة:

سنرى مشهدًا مألوفًا ومتكررًا: وهو اهتمام الكثيرين بدوابِّهم على حساب أنفسهم وقلوبهم التي تستقل تلك الدواب .. سنجدهم يبالغون

فـــي العناية بدوابهم: بطعامها وشـــرابها ونظافتها بصـــورة مبالغ فيها، لدرجة أنهم يهملون أنفسهم ولا يقومون بأداء الأعمال التي طالبهم الله عَزَّوَجَلَّ بها وسيسألهم عنها يوم رجوعهم إليه.

وســـنرى مشهدًا مثيرًا يتمثل في انبهار أكثر السائرين في رحلة الحياة بالزخـــارف والزينات التـــي تملأ الطريـــق، والتوجُّه الدائـــم نحوها، والانشغال بها عن كل ما سواها.

ومن المتوقع أن نُشـــاهد تنافسًـــا يؤدي إلى الخصومة والتدابر بين بعض السائرين بسبب رغبة البعض في الاستحواذ على جزء من الطريق والسيطرة عليه .. مع أن الجميع يسير فيه وسيتركه شاء أم أبى.

ومما سنراه كذلك نار الحســـد والغيرة تأكل قلوب بعض السائرين كلما ظهر شيء جديد على دواب أقرانهم؛ مع أن الحقيقة تهتف كل يوم بأن الكل سيُفارق دابته فور الوصول إلى الراية .. الموت!

مشـــاهد كثيرة، لك -أخي القـــارئ- أن تُطلقَ فيهـــا العنان لفكرك وتُسقطها على الواقع الذي نحياه.

هذا المثال له علاقة كبيرة بحياتنا على هذه الأرض، فنحن في رحلة حقيقيـــة، ولم نوجد في الدنيا لكي نأكل أو نشـــرب أو نلهو، بل للقيام بمهمة محددة وهي عبادة الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

لم نُخلَق بلا هدف:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾

[المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

هذه الرحلة قائمة ومستمرة باستمرار تعاقُب الليل والنهار؛ لذلك فإن الواجب يُحَتِّم علينا أن يكون جُلُّ اهتمامنا تنفيذ ما طلبه منا ربُّنا؛ حتى نفوزَ بجائزته ومَوعوده، وإن لم نفعل فعاقبة السوء تنتظرنا..

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**... كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**»(١).

وَقَالَ: «**يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ، النَّاسُ غَادِيَانِ؛ فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، وَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا**»(٢).

القطار

ويمكننا كذلك أن نضرب مثلًا لرحلة الحياة الدنيا بقطار ينطلق في

---

(١) رواه مسلم (١/ ٢٠٣ برقم: ٢٢٣).

(٢) رواه أحمد في المسند (٢٢/ ٣٣٢ برقم: ١٤٤٤١)، وابن حبان (١٠/ ٣٧٢ برقم: ٤٥١٤)، والحاكم (٤/ ٤٦٨ برقم: ٨٣٠٢) وصححه، ووافقه الذهبي، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٦ برقم: ١٢٨١).

مسـار طويل ... يتوقف في محطات.. في كل محطة يصعد إليه أناس ويهبـط منه آخـرون، ولقـد صعدنا إلى هـذا القطار فـي محطة من المحطات، ونرى حولنا الكثير ممن سـبقونا وممن أتوا بعدنا .. يهبط بعضهم والبعض الآخر ينتظر ... وسـيأتي علينـا حتمًا وقت نهبط فيه نحن أيضًا.

أخي

لقد دخلنا الدنيا فوجدنا أُناسًـا حولنا فتعايشنا معهم، وانغَمَسنا في مُلهيات الحياة مثلهم، ولا نشـعر بغرابة ما نفعله مع أن عشرات الأدلة تترى أمام أعيننا تُنبِّهنا بأن الدنيا ليسـت دار مقـام، وأننا في رحلة إلى الدار الآخرة بدليل هـبوط الكثيرين أمام أعيننا من قطـار الحـياة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١]، فلنحاول -أخي- أن نتخيَّل هذه الرحلة لعـل ذلك يكون عونًا -بإذن الله- للخروج مِن دَوَّامة الدُّنيا، والانتباه والتشمير لما ينبغي أن نقومَ به.

• • •

البدايـــة

لئن كانت الأسطر الســـابقة قد ذكّرتنا برحلة الحياة التي نرى بأعيننا مشاهد منها؛ إلا أنها لا تكتمل -بإذن الله- إلا بالتذكير بالبداية الحقيقية لرحلة البشرية جَمعاء، وما تحمله هذه البداية من أمور غاية في الأهمية، حيث العهـــدُ والميثاقُ والوعـــدُ الذي قطعناه على أنفســـنا لله عَزَّوَجَلَّ بتنفيذه.

كيلا تَعظُم مفاجأتنا بالموت وانكشاف الغطاء

أخي: لأننا في الدنيا نؤدي اختبارًا حقيقيًا.. شئنا أم أبينا؛ ولأن نتيجة هذا الاختبار تُحدِّدُ مصيرنا هناك.. في دار الخلد؛

ولأن التعلق بالدنيا ونســـيان الآخرة هو أصل الشرور والعائق الأكبر أمام النجاح في هذا الاختبار؛

ولأننا نعيش في غفلة ونســـير مع الســـائرين في الحياة مُنكبِّين على الأرض، ولا نكاد نفكر في مصيرنا الحقيقي؛ كان من المناســـب أن يتم التذكير بالبداية ... من هناك .. حيث العهدُ والميثاقُ مع الله.

العرض والقبول

...كان مشهدًا عظيمًا ..

عرَضَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الأمانةَ ... أمانــة القيام بالتكاليف، وما يتبعها مِن ثوابٍ وعقاب.

...عرَضَ تلك الأمانة على السماوات، فأبَتْ!

وعرَضَها على الأرضِ، فأبَتْ!

وعرَضَها على الجبالِ، فأبَتْ!

الســماواتُ والأرضُ والجبــالُ أبَيْنَ حَمل الأمانة؛ اســتعظامًا لها، وإشفاقًا، وخوفًا مِن مَغَبَّة عدم القيام بها:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وكلمة «عَرَضْنَا» تعني أن الله -جل شــأنه- قد ترك لمَن تُعرَض عليه الأمانة حُرِّية الاختيار في قبولها مِن عدمه، وأنه ســبحانه لم يُجبِر أحدًا على قبولها.

ثم عرَضَها سبحانه على الإنسان، فقَبِل، ووافَقَ على حملها:

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

نعم، وَافَقَ!

وافقَ أن يعبُدَ اللهَ بالغيب، ويخضـعَ له، ويُطيعَه، ويؤدي ما افترضه مِن تكاليف، في ظل وجود المُعطيات المختلفة، كنفسٍ أمَّارة بالسوء، ودُنيا مُلهية، وعدوٍّ يَتَرَبَّص به.

وافقَ الإنسانُ على ذلك.

إنْ أحسَنَ ونجحَ في الاختبار فازَ بالجائزةِ والنَّعيم الدائم.

وإنْ تمرَّد وأساء وفشل؛ سيُعاقَب ويُحبس في النَّار.

لم يُجبر اللهُ عَزَّوَجَلَّ الإنسانَ على القبول:

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

مـع الأخذ في الاعتبـار أن المقصود بلفظ الإنسـان هنا هو عموم الناس... أنا وأنت، وأبي وأبوك، وجميع البشر.

الـكل -والله أعلم- قد حضر هذا المشـهد، وعُـرِض عليه حمل الأمانة بما فيها من تكاليفَ ومغارمَ ومغانمَ،... فوَافقَ[1].

---

(١) تأمَّـل -مثـلًا- في سـورة العصـر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣]، فلفظ الإنسان في السورة يدل على العموم، جميع الناس، ومما يؤكد ذلك هو ذكر الاسـتثناء «**إلا الذين آمنوا**» أي إن جميع الناس في خسر إلا هؤلاء، وأيضًا في سورة التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين: ٤-٦]، =

إذن ؛ الكلُّ قد حضر، ووَافَق على حمل الأمانة بتكاليفها.

لم نُجبَر على الموافقة.. قَبِلنا جميعًا .. هذه هي الحقيقة.

فإن قلت: لم نكن نعلم بأبعاد تلك الأمانة، جاءك -بفضل الله-

الجواب: ولماذا أبَتِ السماواتُ والأرضُ والجبالُ؟!

إنَّ امتناعهن عن القبول دليل على وضوح الرؤية لأبعاد حمل الأمانة.

الرَّبُّ الودُود

نعم، هذا القبول من الإنسان له عند الله عَزَّوَجَلَّ حَفاوة وتقدير وإكرام وتفضيل:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

والقارئ المتدبر للقرآن يجد فيه مظاهر تلك الحفاوة والتكريم، ويجد فيه كذلك خطاب الله الودود للإنسان، ويلمس فيه إرادته سبحانه الخير له، والنجاح في اختبار حمل الأمانة، ومن مظاهر ذلك:

= وفي سورة المعارج: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ [المعارج: ١٩-٢٢]، المعنى واضح، لفظ الإنسان يدل على عموم الناس، ولو كان هناك استثناء لذُكر كما في سورة العصر والتين والمعارج، أي أن قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني عموم الناس، والله أعلم.

تسخير الأرض له

فلكي يتفرَّغَ الإنسانُ لوظيفته، وينجح فيها، فقد سخَّر الله له كل ما في الأرض لخدمته:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠].

فكأنَّ كل ما على الأرض يَهتِف بالإنسان:

«لقد خُلقنا من أجلك ... لخدمتك، فلا تنشغل بنا عما خُلقت له».

ولئن كان المطلوب من الإنسان هو عبادة ربه بالغيب؛ إلا أنه سبحانه قد جعل في الكون بلايين الآيات الدالة عليه، التي من شأنها -إن أحسن المرء التعامل معها- أن تُعرِّفَه بربِّه، وبأسمائه وصفاته، فيزداد بهذه المعرفة خشية له سبحانه:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فإن شرَد البعض عن الله، ولم يلتفتوا لآياته الدالة عليه؛ فإنه سبحانه

لا يتركهم، بل يَتَوَدَّدُ إليهم، ويَستحثُّهم على العودة إليه، والاستجابة له قبل فوات الأوان: ﴿ **اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ اللَّهِ** ﴾ [الشورى: ٤٧].

ومن صور هذا التودُّد تلك المُحفِّزات التي من شأنها أن تدفع العاقل نحوه سبحانه، ومن ذلك:

أن باب التوبة إلى الله مفتوح لا يُغلق ليلًا أو نهارًا.

عَنْ النَّبِيِّ ﷺ يَروِيهِ عَنْ رَبِّه قَالَ: «**ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ، ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ إِنْ تَلْقَانِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، لَقِيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً بَعْدَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ إِنْ تُذْنِبْ حَتَّى يَبْلُغَ ذَنْبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَسْتَغْفِرُنِي أَغْفِرْ لَكَ وَلَا أُبَالِي**»(١).

هذا الباب مفتوح حتى الغرغرة: «**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِهِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**»(٢)، وحين يعود الشارد إليه، ويتوب توبة صادقة فإنه سبحانه يمحو سيئاته السابقة، بل يُبَدِّلُها حسناتٍ:

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣٥/ ٣٧٥ برقم: ٢١٤٧٢)، والدارمي في السنن (٣/ ١٨٣٥ برقم: ٢٨٣٠)، عن أبي ذر ﷺ، ورواه الترمذي عن أنس ﷺ (٥/ ٥٤٨ برقم: ٣٥٤٠)، وقال: حسن غريب، ورواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ﷺ (١٢/ ١٩ برقم: ١٢٣٤٦).

(٢) رواه أحمد في المسند (١٠/ ٤٦١ برقم: ٦٤٠٨)، وابن ماجه (٥/ ٣٢٣ برقم: ٤٢٥٣)، والترمذي (٥/ ٥٤٧ برقم: ٣٥٣٧) وقال: حديث حسن غريب، وابن حبان (٢/ ٣٩٥ برقم: ٦٢٨).

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

ومن مظاهر الود الإلهي أن الحسنة بعشر أمثالها، أما السيئة فتُقابَل بمثلها:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وليس هذا فحسب، بل إنه سبحانه يُرسِل لعباده بعضَ المكفِّرات التي تكفر خطاياهم كالمرض، والألم، والهمِّ، والغَمِّ ... حتى الشوكة.. وغير ذلك من مظاهر وُدِّه سبحانه بعباده:

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠].

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وهكذا يتضح جليًّا مدى التكريم والود الإلهي للإنسان لقَبوله حمل الأمانة:

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ﴾

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣].

العهد والعقد والميثاق

بعد أن قَبِل الإنسان حمل الأمانة حدث بعد ذلك أمرٌ جَلل.. فقد جمع الله عَزَّوَجَلَّ جميع بني آدم... نعم، الجميع دون استثناء..

حينها لم يكن هناك فرقٌ بين الحاضرين.

ليس هناك: أبيض أو أسود.. غني أو فقير.. صحيح أو مريض.. طويل أو قصير.. جميل أو قبيح.. قوي أو ضعيف.. لا توجد لغات مختلفة ... لم يكن هناك رايات للقبائل أو العوائل أو البلدان.. لم نجتمع بالآباء والأولاد الذين سنكون معهم في الدنيا.. ليس هناك صلة بينك وبين غيرك.. كل واحد بمفرده:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

الجميع سواسية.. لا فرق بين الحاضرين..

كان الهدف من الجمع التعرف على تفاصيل الأمانة بعد أن وافق الجميع على حملها.. وهناك تم القبول التفصيلي، وصار بين سائر البشر وبين الله عَزَّوَجَلَّ عقد، وعهد، وميثاق... فما هي بنود هذا العقد والميثاق؟!

قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فكان الإقرارُ والقَبول من الجميع: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، أي أَقَرُّوا له بالربوبية.....كان الإقرار والقبول بالعلاقة التي تجمعنا وسائر البشر بالله عَزَّوَجَلَّ، وهي الربوبية ... يُقابلها من البشر العبودية.. أي أنها علاقة العبودية بالربوبية.

أو بعبارة أخرى أننا شهِدنا وأقررنا بربوبيته سبحانه؛ ومن ثم فعلينا أن نعيش دومًا في حقيقة فقرنا، وضعفنا، واحتياجنا الماس والمطلق له، فنكون دومًا في حالة من الخضوع، والتضرع، والذل، والتصاغر، والافتقار والاستسلام له سبحانه.

...في هذا المشهد كان الوعد من الجميع بتنفيذ ما عاهدوا الله عليه، تأمل قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧].

ويؤكد ذلك ما جاء في الدُّعاء النَّبويِّ: «..**وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ..**»(١).

(١) رواه البخاري (٨/ ٦٧ برقم: ٦٣٠٦).

طبيعة الاختبار

في هذا المشـــهد تم بيان طبيعة الاختبار، والتحذيـــر من العقبات، وكذلك عداوة الشيطان الأبدية لجميع البشر:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ
أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ
قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ
أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ
أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ
أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ ، ١٧٣].

ففي الآيات ما يؤكد إعلام الله عَزَّوَجَلَّ لســـائر البشـــر بأن هناك يومًا سيعودون فيه جميعًا إليه، وهو يوم القيامة... وفي هذا المشهد أيضًا تم التحذير من اتباع الآباء على ضلالهم... وليس ذلك فحســـب بل كان التحذير من عبادة الشيطان.. قال تعالى:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ
إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ
وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ ، ٦١].

ففي هذه الآيات ما يؤكد بأن الله عَزَّوَجَلَّ قد حذَّرنا من عبادة الشيطان، وطالبنا بعبادته سبحانه.. والله أعلم.

نعم، أخي، لقد تم بيان كل شيء في هذا المشهد العظيم..

ولقد بيَّن لنا سبحانه أن العائق الأكبر أمامنا هي الأنفس:

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وأبطَلَ الحُجَجَ التي سيَحتجُّ بها البعض:

﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

وحدَّدَ للجميع موعد العودة:

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وسمَّاه:

﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

وأخبر الله عَزَّوَجَلَّ بني آدم بأنه سيُرسل لهم رُسلًا يُذكِّرونهم بما جاء في العهد والميثاق: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا

﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥، ٣٦].

الآيات الدالة على الله

لقد أكرمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الإنسانَ بإرسالِ الرسل وإنزالِ الكتب التي تُذكِّرُه بالعهدِ والميثاق، وتُبيِّنُ له الطريقَ الموصل للالتزام به، وأكرمه كذلك بالآيات المبثوثة في نفسه والكون المحيط به التي تهتف بالدلالة عليه سبحانه، وعلى أسمائه وصفاته، وعلى البعث والحساب: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وهذا مثال يُبيِّنُ أهمية الآيات المحيطة بنا في الدلالة عليه سبحانه، وأن الواجب يحتم علينا أن نتوجه بتلقائية نحو التفكر فيها ونتلمس الحكمة من وجودها.

لو أنك كنت خارج منزلك، ولم تترك فيه أحدًا، وعدت إليه بعد مدة، فوجدت مائدتَك قد امتلأت بأنواع مختلفة من الأطعمة الشهية، والعصائر، والحلوى... هل ستُسارع بالتهام الطعام؟ أم ستُفَكِّر أولًا فيمن فعل ذلك؟!

هذا المثال قريب مما نعيش فيه؛ فالكون المسخَّر المحيط بنا، ألَا

يدعونا إلى التفكير في الحكمة من هذا التسخير؟!

أليس من البدهي التفكيـــر في هذا الأمر، كما أنه من البدهي التفكير فيمن أحضَر الطعام ووضَعه على المائدة؟!

ولقد بيَّن القرآن في أكثر من موضع هذا المعنى، وأن الكون المحيط بنا يكفي تمامًا للدلالة على الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢٤].

مِن أينَ جَاء؟!

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا
ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا
فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا
وَعِنَبًا وَقَضْبًا
وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا
وَحَدَآئِقَ غُلْبًا
وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا
مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٥ - ٣٢].

وحين عرضَتْ سورة (ق) دَعاوى المشركين وتكذيبهم بالبعث كان الردُّ المفحم من خلال التذكير بهذا المعنى .. بالنظر إلى الكون وما فيه من آيات بيِّنات:

﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق: ١-١١].

وعندما تحدثتْ سورةُ الغاشية عن النهاية .. نهاية المُكذِّبين، ونهاية الطائعين، أردفتْ ذلك بهذا المعنى، وابتدأته بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ [الغاشية: ١٧].

وكأن الآيات تهتِف بنا: ألم يكن يكفيكم هذه المشاهد، وما فيها من آيات لتستدلوا بها على الله جل شأنه وعلى البعث؟

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ۝٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝١٠ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ۝١١ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ۝١٣ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ۝١٦ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ

﴿كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ١ - ٢٦].

ألم يأتِكم نذير؟!

ومما يؤكد هذا المعنى: أن النار تُزَمجِر، وتكاد تَمَيَّزُ من الغيظ كلما دخلها فوج من البشر، وكأنها تهتف بهم: لقد كانت تكفيكم بلايين الآيات التي أحاطت بكم للتعرف من خلالها على ربكم، وعلى البعث والحساب، فلئن كنتم قد أهملتموها فلقد خسرتم خسرانًا مبينًا، وسِرتم بأنفسكم في طريق الهلاك، ... ثم كيف يرسل الله لكم بعد ذلك رسلًا فتكذبونهم؟ ولا تتبعونهم؟ لماذا؟

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ
إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ
تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ
كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ
قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ...﴾ [الملك: ٦ - ٩].

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١١، ١٢].

نعم أخي، فأمر الإنذار بالآيات والرسل والكتب أمر عظيم، والإعراض عنه عاقبته أليمة:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

وغني عن البيان أن القرآن الكريم هو النذير ولقد تعهد الله بحفظه ليبقى شاهدًا على البشر يقيم الحجة عليهم:

﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ .. ﴾ [الأنعام: ١٩].

وظيفة الرسل

المُهمَّة الأساسيَّة للرسُلِ هي تَذكيرُ الناس بما تَضَمَّنَه العهد الذي عاهدوا الله عليه، وإنذارهم بالعاقبة السيئة إن لم يلتزموا بعَقدِهم معه سبحانه:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١].

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ۘ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأحقاف: ٢١].

وفي هذا المعنى يقول الحافظُ ابن رجب في شرحه لقولِ النَّبِيِّ ﷺ: «حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَـرِيكَ لَهُ»[1]، هذا هو المقصود الأعظم من بعثته ﷺ، بل من بعثة الرسـل من قبله كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقـال تعـالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

بل هذا هو المقصود من خلق الخلق وإيجادهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فما خلقهم إلا ليأمرَهم بعبادته، وأخذ عليهم العهد لما استخرجهم مِن صُلب آدم على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقد تكاثرتْ الأحاديث المرفوعة والأخبار الموقوفة في تفسير هذه الآية **أنه تعالى اسـتنطقهم حينئذٍ، فأقرُّوا كلهم بوحدانيته، وأشـهدهم على أنفسهم وأشهد عليهم أباهم آدم والملائكة** .. ثم إنه تعالى تعهَّدهم في كل زمان بإرسـال رسـله، وإنزال الكتب يُذكِّرُهـم بالعهد الأول،

---

(١) يعني حديث «بُعثت بين يدي السـاعة بالسيف، حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظـل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشـبه بقوم فهو منهم» رواه الإمام أحمد في المسند (٩/ ١٢٦ برقم: ٥١١٥) عن ابن عمر ﷺ.

ويجدد عليهم العهد والميثاق على أن يوحِّدوه ويعبدوه ولا يشركوا به شيئًا...

وأشار في خطاب آدم وحواء عند هبوطهما من الجنة إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩]، وفي سورة طه نحو هذا.

فما وفَّى بنو آدم كلهم بهذا العهد المأخوذ عليهم؛ بل نقضه أكثرهم وأشركوا بالله ما لم يُنَزِّل به سلطانًا، **فبعثَ اللهُ الرسُلَ تُجَدِّدُ ذَلكَ العهد الأوَّل وتدعو إلى تجديد الإقرار بالوحدانية**[1].

القرآن والتذكير بالعهد الأول

والمتأمل للقرآن العظيم يجد أكثر من آية تُذكِّر بهذا العهد وتأمر بالوفاء به: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ﴾ [المائدة: ٧].

﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وتمتدح مَن يلتزم ويفي به: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ

---

(١) رسالة «الحكم الجديرة بالإذاعة» من قول النبي ﷺ: «**بعثت بالسيف بين يدي الساعة**» من مجموع رسائل ابن رجب (١/ ٢٣١، ٢٣٢).

﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ
﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾
سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٠- ٢٤].

وتَذُمُّ مَن ينقضه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ
مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ
ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

بل إن القرآن يصف مَن لم يلتزم بالعهد والميثاق بالخوَّان:
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ
تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

يقول عبد الرحمن السعدي في تفسير هذه الآية: يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيه، فإن الأمانة قد عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا، فمَن أدَّى الأمانة استحق مِن الله الثواب الجزيل، ومَن لم يؤدِّها بل خانها استحق العقاب الوبيل، وصار خائنًا لله وللرسول ولأمانته، مُنقصًا لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخسِّ الصفات، وأقبح الشِّيات، وهي الخيانة، مُفَوِّتًا لها أكمل

الصفات وأتمها، وهي الأمانة[١].

ونجد هذا المعنى أيضًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

يقول ابن باديس رحمه الله: هذا من الله تعالى خبرٌ حق ووعد صدق للمؤمنين، بأنه يرد عنهم كيد أعدائهم، ويبطل مكرهم، ويَكُفُّ ضُرَّهم، وإن عَظُمَ ذلك منهم وكَثُرَ، وإن هذا منه لهم مُتكرر متجدد؛ ذلك لأنهم بإيمانهم حافظوا على أمانة الله عندهم، وعهده لديهم، واعترفوا بنعمه وشكروها، فأحبَّهم الله ورضيَ عنهم، فأيَّدهم ونصرهم، ودافع عنهم، ولأن أعداءهم ضيَّعوا أمانة الله عندهم، بارتكاب المنهيات، وترك المأمورات، وجحدوا وحدانيته أو نبوة نبيه ﷺ أو ما جاءهم به من شَرعه، فأبغضهم وردَّ كيدَهم مغلوبين مدحورين[٢].

عودة إلى المشهد العظيم

أخرج الحاكم عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾

[الأعراف: ١٧٢].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٣١٩).

(٢) تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (ص: ٣٥١).

قَالَ: جَمَعَهُمْ لَهُ يَوْمَئِذٍ جَمِيعًا مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَجَعَلَهُمْ أَرْوَاحًا، ثُمَّ صَوَّرَهُمْ، وَاسْتَنْطَقَهُمْ، فَتَكَلَّمُوا، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ، وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم؟قالوا: بلى شهدنا.. أن تقولوا يوم القيامة، إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل، وكُنَّا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون؟

قَالَ: فَإِنِّي أُشْهِدُ عَلَيْكُمُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ، وَأُشْهِدُ عَلَيْكُمْ أَبَاكُمْ آدَمَ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «لَمْ نَعْلَمْ»، أَوْ تَقُولُوا: ﴿**إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ**﴾، فَلَا تُشْرِكُوا بِي شَيْئًا، فَإِنِّي أُرْسِلُ إِلَيْكُمْ رُسُلِي، يُذَكِّرُونَكُمْ عَهْدِي وَمِيثَاقِي، وَأُنْزِلُ عَلَيْكُمْ كُتُبِي، فَقَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ رَبَّنَا وإِلهَنَا لَا رَبَّ لنَا غَيْرُكَ..[1].

وأخرج الطبري في تفسيره عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قوله في هذه الآية: ... ثُمَّ أَخَذَ عَهْدَهُ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْمَعْرِفَةِ بِهِ وَبِأَمْرِهِ، وَالتَّصْدِيقِ لَهُ وَلِأَمْرِهِ؛ بَنِي آدَمَ كُلِّهِمْ، فَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَآمَنُوا وَصَدَّقُوا وَعَرَفُوا وَأَقَرُّوا[2].

---

(١) المستدرك على الصحيحين (٢/ ٣٥٣ برقم: ٣٢٥٥)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، ورواه عبد الله في زياداته على المسند (٣٥/ ١٥٥ برقم: ٢١٢٣٢)، وحسنه الضياء في المختارة (برقم: ١١٥٨).

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٢٣٨ – تحقيق شاكر – مؤسسة الرسالة).

لا أذكر هذا المشهد

قد يقول قائل:

أنا لا أذكر شيئًا من هذا المشهد وما كان فيه من وعد وعهد وميثاق.

..نعم، لا توجد لدينا صورة ذهنية لهذا المشـــهد، فلو افترضنا أن ما حدث فيه ظلَّ عالقًا بالأذهان، فما قيمة الإيمان بالغيب؟!

بمعنى: أننا لـــو تذكرناه لانتقـــل الإيمان من الغيب إلى الشـــهادة، ولانتفى عنّا أهـــم عامل من عوامل اختبارنا في الدنيا... فعلى ســـبيل المثال: عذاب القبر الذي ينال المكذِّبين تشعر به البهائم والدَّواب، ولا نَشـــعر به؛ لأننا نعبد الله بالغيب، فلو كُنّا كالدواب مثلًا وشَـــعرنا بهذا العذاب لدُفعنا دَفعًـــا نحو الإيمان، ولأصبح اختبـــار الإيمان بالغيب اختبارًا يسيرًا، بل لا يكاد يُطلق عليه اختبار ... والله أعلم.

ومع ذلـــك، فالرب الـــودود الرحيم، ترجم لنا نتيجة هذا المشـــهد العظيـــم وما كان فيه من عهد وميثاق في صورة فطرة حنيفية... أي ميل نحو الحق؛ ولئن كنا قد خلقنا بين طريقين .. طريق الخير والشر.. الحق والباطل، وعلينا أن نختار بإرادتنا الســـير في أيهما؛ ومن ثم نُحاسَـــب على نتيجة اختيارنا:

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا
إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ
فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا
إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ١ - ٣].

إلا أننا لم نبدأ من المنتصف، فالرب الرؤوف الرحيم جعل بدايتنا: مَيلًا وانحرافًا نحو طريق الحق، ونحو توحيده، وهو ما يُسمَّى بالفطرة الحنيفية:

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ**»(١).

وقال ﷺ: قال الله تعالى: «**إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ**»(٢).

جاء في سنن أبي داود أن حمَّادًا بنَ سلمةَ فسَّر حديث: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ**» قال: هذا عندنا حيث أخَذَ الله عليهمُ العهدَ في أصلابِ آبائهم، حيث قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢](٣).

ومما يعطينا صورة أكثر تفصيلًا عن كُنه وماهية الفطرة الحنيفية التي

(١) رواه البخاري (٢/ ٩٤ برقم: ١٣٥٨) ومسلم (٤/ ٢٠٤٧ برقم: ٢٦٥٨).
(٢) رواه مسلم (٤/ ٢١٩٧ برقم: ٢٨٦٥).
(٣) سنن أبي داود (٧/ ٩٩ - تحقيق الأرنؤوط).

خُلقنا عليها ما جاء في حديث رسول الله ﷺ الذي رَوَاهُ البَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رضي الله عنه: «**إِذَا أَرَدْتَ مَضْجَعَكَ، فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. فَإِنْ مُتَّ مُتَّ عَلَى الفِطْرَةِ**»[1].

تأمَّل معاني الدُّعاء وما فيه من استسلام تام لله وإقرار بمدى فقرنا إليه سبحانه وربوبيته التامة علينا، ثم تأمَّل قولَه ﷺ: «**فَإِنْ مُتَّ مُتَّ عَلَى الفِطْرَةِ**»... أي أننا قد خُلقنا وبدأنا حياتنا على الأرض بهذا الحال وهذه العلاقة مع الله عَزَّوَجَلَّ.

• • •

(١) رواه البخاري (٨/ ٦٨ برقم: ٦٣١١) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٠٨٢ برقم: ٢٧١٠).

النزول إلى الأرض

لقد كان عهدًا وميثاقًا غليظًا.. تم بعد البيان التام لطبيعة الاختبار ... وافقنا جميعًا، وقلنا: سمعنا وأطعنا: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ﴾ [المائدة: ٧].

وبعد العهد والميثاق بدأت الأرواح تنزل إلى الأرض وتسكن الأجساد... بدأت أرواح جميع البشر تنزل مجموعة تلو الأخرى إلى الأرض في أزمنة وأماكن مختلفة، وفي بيئات متفرقة، وآباء وأمهات مختلفين، وأجساد مختلفة، من حيث اللونُ والشكلُ والصحةُ والمرضُ والذكاءُ، و...إلخ.

والجدير بالذكر أنه عند لحظة الولادة كان الجميعُ لا يعلم شيئًا عن الحياة في الأرض ومفرداتها: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨].

وشيئًا فشيئًا، وبحسب أحوال الآباء، والبيئات، والأجواء المحيطة و....، يبدأ الطفل الذي يحمل رُوحًا قد شهِدت العَهد والميثاق ... يبدأ في اكتساب معلوماتٍ، ومهاراتٍ، وخبراتٍ، ولُغةً، ومعارفَ تختلف من شخص لآخر باختلاف ما يتعرض له، وكلما نما الطفل وكبرت سنه ازداد اكتسابًا لتلك الأمور... ولئن كان في لحظة الولادة: لا يعلم شيئًا، ولا يملك شيئًا؛ فبمرور الوقت، وباتصاله بأسرته وبيئته المحيطة، والتحاقه بالتعليم، و... إلخ، أصبح له: نسَبٌ، وجاهٌ، ومُلك، وأموال، وشهادات، وخبرات، وأصدقاء، وزوجة، وأولاد، و.... كل ذلك زائد عن لحظة الولادة، وعما كان عليه يوم الميثاق.

وكما سبق ذكره، فقد كنا يوم الميثاق فُرادى، لا نَعرِف آباءً، أو أزواجًا، أو أشقَّاء، أو أبناء، أو أقارب.

الانبهار بالدنيا

جعل الله عَزَّوَجَلَّ الدنيا مكان الاختبار، وجعل فيها من الزخارف والمباهج والملهيات ما يشكل مادة لامتحان بني آدم، ويكشف مدى حرصهم على الالتزام بالعهد والميثاق:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

[الكهف: ٧].

ومما يدعو للأسف أن كثيرًا من الناس استجاب لوساوس الشيطان، وسار وراء هوى نفسه في حُبِّ التمتع بمباهج الدنيا، وطلب العلو فيها، واستغلَّ كل واحد ما عنده وما اكتسبه من مهارات وخبرات وأموال، وما ينتمي إليه من نسَب، و ... استغل ذلك في طلب العُلوِّ في الأرض، والتنافس على الدنيا... فنسيَ الناس العهدَ والميثاق، وبدأت الفطرة تنحرف نحو طريق الباطل، بدرجة تختلف من شخص لآخر، فكان الضلالُ والبعد عن الطريق الصحيح ... الصراط المستقيم، وكلما ازداد المرء تعلقًا بالدنيا وانشغالًا بها؛ ازداد بُعْده وضلاله عن الصراط المستقيم.

عند الموت تنكشف الحقيقة

أرسل الله -بفضله ورحمته- الرسل ليُذَكِّروا الناس بما تضمنه العهد والميثاق، وأنزل معهم الكتب، وكان آخرَها القرآنُ الكريم الذي تَفيض آياتُه في ذكر حقيقة العهد، وما ينبغي أن تكون عليه علاقتنا بالله عَزَّوَجَلَّ، وغير ذلك من الواجبات المطلوبة، ولكن الانبهار بالدنيا، والسير وراء هوى النفس وغواية الشيطان جعل كثير من الناس ينسى هذه الحقيقة الخالدة: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١ -٣].

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١ ، ٢].

انخدع الناس بالدنيا، وانبهروا بها، واستغل الشيطان هذا الانبهار في إضلالهم وإبعادهم عن حمل الأمانة والالتزام بالعهد الأول...

قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٥، ٦].

غَفَل البَشَرُ عن حقيقة وسبب وجودهم في الأرض وكأنَّهم لم يعاهدوا الله على شيء، وليس ذلك فحسب؛ بل تعاملوا مع حياتهم بطريقة توحي بعدم شعورهم بالاحتياج إليه سبحانه، ومع ذلك فإن الرب الودود لم يَتركهم لغفلتهم، بل أرسل لهم على مَرِّ الأزمنة مذكِّرات تذكرهم بحقيقة ضعفهم واحتياجهم إلى ربهم لعلهم يعودون إليه:

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٦].

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١].

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨].

ولكن الغالبية من البشر خدعتهم الدنيا، فهاموا حبًّا فيها، وتَعَلُّقًا بها، فلم ينتفعوا بما يرسله الله لهم من آيات ونُذُر، واستمروا في غفلتهم وسكرتهم وابتعادهم عن طريق ربهم:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

ولم يشأ الربُّ الودود أن يقطع عنهم آياتِه ونُذُرَه لعلهم يرجعون، فكانت آيات التخويف العامة كالفيضانات، والصواعق، والجدب، والسيول، وكذلك الآيات الخاصة بكل فَرد: كالمرض والنقص والتعسير... كل ذلك وغيره يهدف إلى إفاقة الناس من غفلتهم قبل فوات الأوان، لكنهم -إلا من رحم الله- لا يريدون الإفاقة، فلقد استحَبُّوا الحياةَ الدُّنيا: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

• • •

كشـف الغطــاء

يستمر الأمر على هذا المِنوال.. وتمضي بالناس الأيامُ والأعوام، فلا يزدادون بمُضِيِّها إلا غفلةً وبُعدًا وضلالًا عن طريق ربِّهم... ولكن إلى متى يستمر ذلك؟!

تســتمر هذه الغفلة والسَّــكرة حتى تأتي لحظة المفاجأة والصدمة والإفاقة الحقيقية... لحظة ملاقاة الموت.

..**نعم، الموت.**

عندها يحدث شيء عظيم ... تُنزَع الروحُ من الجسد.

تُنزَع الروح لتعود كما كانت أول مرة.

بلا شــهادات.. بلا مواهب.. بلا لغة.. بلا مهارات.. بلا أموال.. بلا أمراض..

نَنخَلِع من كل شيء اكتسبناه، أو امتلكناه في الدنيا.

ننتقل من عالم الأسباب، ونترك قانون السببية؛ ونخرج من إطار الزمان والمكان.

فلا قوة، ولا قدرة.. لا ضعف، ولا عجز... استسلام تام..

لا جهل، ولا علم.. لا ذكاء، ولا غباء.. لا رُتب، ولا جاه.. لا نسب، ولا علو.. نعود كما بدأنا ... الكل سواسية:

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩].

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ
كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

عند الموت ننتقل من عالم الزمن والأسباب إلى عالم آخر تمامًا... نَخلَع اللباس الذي ارتديناه في الدنيا ... ألا وهو الجسد بما فيه من ضعف أو قوة، من مهارات أو خبرات، من شهادات، أو ...، نخلع هذا اللباس ونتركه ليبلى، ونُفاجَأ حينَها بأمر خطير.. خطير..؛ فعند الموت ينكشف الغطاء عن الحقيقة ... فنتذكر العهد الأول، والوعد الذي وعدنا به اللهُ عَزَّوَجَلَّ.. نتذكر ذلك، ونتذكر أيضًا انحرافنا الشديد عن هذا العهد ومدى نقضنا له:

﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

قبل ذلك اليوم كانت الغِشاوة المكتسبة من الغفلة، وظُلمة المعاصي والانبهار بالدنيا تَحُول بين المرء وبين رؤية الحقيقة... والآن زالت الغِشاوة، وظهرت الحقيقة، ويعود الجميع لأصله الذي بدأ عليه: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

الفلَّاح والصانع.. العالم والجاهل.. الرئيس والمرؤوس.. الكل يترك اللباس الذي ارتداه، يتركه بكل ما فيه، وما أضافه إليه طيلة عمره.

المريض يَخلع رداء المرض، والصحيح يخلع رداء الصحة.. وكذلك الغني والفقير.. والوَلُود والعقيم.. والقوي والضعيف.. والمتكبر والمستضعف.

الكل يخلع رداءه، وينكشف غطاؤه، وتعود بصيرته لِعَمَلِها، فيرى الحقيقة، ويتذَكَّرُ العهد، والوعد... فأيُّ حسرة وصدمة وضيق وفزَع يعيشها الغافل في هذه الحال!

تخيل هذا الموقف.. ولنتخيل أنفسنا جميعًا فيه.. فيا للمصيبة... ويا للكارثة.

القدوم على الله

في خِضَمِّ هــذه الصدمة، ومع هَول هذه المفاجــأة ووَقع المصيبة، ومع الاستســلام التام للملائكة.. تُســاق الأرواح إلى السماء للقدوم على الله.

لنتخيل أنفســنا ونحن نعيش في أجواء الصدمــة والمصيبة، ونحن نُقارن ما عاهدنا الله عليه، مع ما فعلناه في الدنيا.

لنَتَخَيَّلْ أنفسنا والملائكة تَسوقنا نحو السماء للقدوم على الله ... أي خوف ورُعب وهَول وصدمة يعيشها المرء حينها!!

ثم يحــدث الأمرُ المتوقَّع للكثيرين .. أن تُغلِق الســماء أبوابَها أمام تلك الأرواح، وترفض -بأمر الله- صعودها نحوه سبحانه، فهو لا يريد مقابلة هؤلاء الخائنين لعهدهم ...

وما بين خروج الروح من الجسد، وامتناع أبواب السماء السماح لها بالصعود تتوالى عليها اللعنات من الملائكة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا
لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ
وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«... إِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمْ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ؛ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنْ اللَّهِ وَغَضَبٍ.

قَالَ: فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ؛ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ[1] مِنْ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا؛ فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا:

مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا، ثُمَّ قَرَأَ:

(١) سيخ ذات شُعَبٍ معقوفة يُشوى به اللحم (لسان العرب: ٣/ ٢١٨).

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

.. فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَيَقُولُ: هَاهْ هَـاهْ، لاَ أَدْرِي، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لاَ أَدْرِي، فَيَقُـولاَنِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لاَ أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ:

أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُـوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًـا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَـمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاَعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ:

أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لاَ تُقِمِ السَّاعَةَ»[1].

أما العبد المؤمن الذي نجـح في اختبار العبودية فحاله كما جاء في

(١) رواه أحمد في المسند عن البراء بن عازب ﷺ مرفوعًا (٣٠/ ٤٩٩ برقم: ١٨٥٣٤)، وأبو داود (٧/ ١٣١ برقم: ٤٧٥٣)، والحاكم في المستدرك (١/ ٩٣ برقم: ١٠٧)، وصححه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٦١٠ برقم: ٣٩٠)، وله شاهد في صحيح مسلم مختصرًا عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا.

الحديث:

« إِنَّ العَبْــدَ المُؤْمِنَ إِذَا كَانَ في انْقِطَاعٍ مِــنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَة، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلاَئِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الوُجُوه، كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّمْس، مَعَهُمْ كَفَــنٌ مِنْ أَكْفَانِ الجَنَّة، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُــوطِ الجَنَّة ـ أَيْ طِيبٌ مِنْ طِيبِ الجَنَّة ـ حَتىَّ يَجْلِسُــواْ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَر، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ عليه السلام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُول:

أَيَّتُهَا النَّفْــس الطَّيِّبَة: اخْرُجِي إِلى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللــه وَرِضْوَان؛ فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاء، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا في يَدِهِ طَرْفَةَ عَين، حَتىَّ يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا في ذَلِكَ الْكَفَن، وَفي ذَلِكَ الحَنُوط، وَيخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْــكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْض، فَيَصْعَدُونَ بهَا، فَلاَ يمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَى مَلإٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ، إِلاَّ قَالُواْ: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبْ؟

فَيَقُولُون: فُلاَنُ بْنُ فُلاَن بِأَحْسَــنِ أَسْــمَائِهِ الَّتي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا في الدُّنْيَا، حَتىَّ يَنْتَهُواْ بِهَا إِلى السَّــمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْــتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لهُمْ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلى السَّمَاءِ الَّتي تَلِيهَا، حَتىَّ يُنْتَهَى به إلى السَّمَاءِ السَّابِعَة، فَيَقُولُ اللهُ عزوجل:

اكْتُبُواْ كِتَــابَ عَبْدِي في عِلِّيِّــن، وَأَعِيدُوهُ إِلــى الأَرْض؛ فَإِنيِّ مِنْهَا

خَلَقْتُهُـــمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى؛ قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولاَنِ لَه:

مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ رَبِّيَ الله، فَيَقُولاَنِ لَه: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ دِينيَ الإِسْلاَم، فَيَقُولاَنِ لَه: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟

فَيَقُول: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: وَمَا عِلْمُك؟

فَيَقُول:

قَرَأْتُ كِتَابَ اللـــهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْت؛ فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّـــمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّة، وَافْتَحُوا لَهُ بَابَاً إِلى الجَنَّة.. قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَـــحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِه.. قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُول:

أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّك،

هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَد، فَيَقُولُ لَه:

مَن أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يجِيءُ بِالخَيْر؟

فَيَقُول: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ فَيَقُول: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ؟»[1].

• • •

(١) من الحديث السابق.

النهـــايـــة

تعــود الأرواح إلــى القبور، وتظل فيهــا إلى اليــوم الموعود، يوم التَّلاقي.. اليوم الذي حدده الله عَزَّوَجَلَّ للبشــر بالعــودة إليه حين أخذ منهم العهد، فقد أخبرهم بأنه سيلتقيهم ثانيًا، ويحاسبهم على عهدهم، وميثاقهم ... وذلك يوم القيامة ... يوم العودة والحساب.. يوم التلاقي..

يوم الحشر

يستمر نزول الأرواح، وســكنها في الأجساد، ومُكثها على الأرض مدة من الزمن حتى يأتي الموت، فتذهب إلى القبور ... يســتمر الأمر كذلــك حتى تكتمل عِدَّةُ البشــر التي قدر الله لهــا أن تنزل إلى الدنيا، وتختبر فيها، وحينها تحدث أمور جِســام تُنبئ بانتهاء اختبار البشــر.. فتتحطم الأرض والجبال، وتُسَجَّر البحار:

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: ١ - ١٤].

ويُنفَخُ في الصُّور، فيَخرج الجميع من القبور، وتبدأ أحداث الحساب.. أحداث يوم القيامة.

يُساق الجميع إلى أرض المحشر، نعم... الجميع، لن يتخلَّف أحد، وكيف يتخلف وهو لا يملك من أمر نفسه شيئًا:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٥، ٢٦].

لا مفر أمام الإنسان .. أي إنسان.. إلا الاستسلام:

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ - ١٢].

الكلُّ سيجتمع في أرض المحشر .. أرض الحساب:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

يوم عصيب

تخيل النـــاسَ حين يتوجهون لأرض المحشـــر والحســـاب، وهم يعلمون أنهم قد خانوا العهد والميثاق ... أيُّ حال يومئذٍ هو حالهم؟ وأيُّ كَرب هو كَربُهم؟ وأيُّ ذُهول هو ذهولهم؟

سيُحشَـــرون عُراةً، ومـــع ذلك لا ينظر أحد إلى غيره، كلٌّ مشـــغول بمصيبته .. يفكر فيما فعله وفي تقصيره وذنوبه ... حتى المؤمن...!

يوم عصيب .. عصيب.

ما أســـمعَ الناسَ .. جميعَ الناس ... وما أبصرَهم يومئذٍ!! ولكن هل ينفعهم ذلك؟! ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨].

لقد كان المطلوب هو الســـماع والإبصار فـــي الحياة الدنيا ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨] .. فيا ترى كيف تكون الحســـرة حين نســـمع ونبصر بعد فـــوات الأوان؟ ..﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

الدنيا التي تعبنا كثيرًا لخدمتهـــا .. المال الذي جمعناه .. الذهب .. العقار .. الأرض .. أين هذا كله؟! جميعها عادت لصاحبها:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

ضاع كل شيء.. وبقيت الحسرة والندم: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [مريم: ٣٩].

الغضب الإلهي

يغضبُ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ مِن البَشَر الذين خانوا العهد.

أهؤلاء هم الذين اجتمعوا في المشهد العظيم، ووافقوا على الاختبار، وأعطوا العهد والميثاق؟!

أهؤلاء هم الذين تم تحذيرهم مما سيجدونه في الأرض، ومع ذلك وقَعوا فيما حُذِّروا منه:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

يغضبُ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ مِن البَشَر الذين نقضوا العهد وخانوا الأمانة وساروا وراء عدوه.

يغضبُ الرَّبُّ، ويطول اليوم، وتزداد الكُرُبات، والضيق، ويتمنى الناس أن يبدأ الحساب، فيذهبون إلى أبي البشر آدم عليه السلام.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

« يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ

مَــا لا يُطِيقُونَ وَلا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّــاسُ: أَلا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْــفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُــونَ آدَمَ عليه السلام فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَــرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلائِكَةَ فَسَــجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّــجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي، نَفْسِــي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ،إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَــمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي، نَفْسِــي، نَفْسِــي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّــكَ أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ لَهُــمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كَذَبْتُ ثَلاثَ كَذِبَاتٍ -فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الْحَدِيثِ[1]- نَفْسِــي، نَفْسِــي،

(١) عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام، قط إلا ثلاث كذبات، ثنتين في ذات الله، قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة في شأن سارة، فإنه =

نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالاتِهِ وَبِكَلامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّوَجَلَّ ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ

= قدم أرض جبار ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار، إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام» (رواه البخاري (٤/ ١٤٠ برقم: ٣٣٥٨) ومسلم (٤/ ١٨٤٠ برقم: ٢٣٧١) واللفظ له).

رَأْسِي»[1].

هل هناك فداء؟!

بعد أن تنكشف الحقيقة، وتسقط الدعاوى، يُفاجَأ المرء بأنه قد ظلم نفسه ظلمًا شـديدًا.. فيحاول البعض أن يجد مخرجًا.. يتمنى أن يقدم الفِدية.. أن يَفدي نفسه من العذاب بابنه وابنته، بزوجته، بأخيه، لا يهمه هؤلاء ... ما يُهِمُّه هو نفسه! فيُرفَض طلبه:

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٤﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ كَلَّآ﴾ [المعارج: ١١ - ١٥].

يَـودُّ لو قدَّم الفدية بـكل ما كان يملكه في الدنيـا مِن مال، وذَهَب، وعقارات، بل يَودُّ لو عرضَ الفدية بمُلكِ غيره .. بل بكل ما في الأرض لو استطاع: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾[آل عمران: ٩١].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كانَ لَكَ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِياً بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، قَالَ: فَيَقُـولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِـنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ

(١) رواه البخاري (٦/ ٨٤ برقم: ٤٧١٢)، ومسلم (١/ ١٨٤ برقم: ١٩٤) عن أبي هريرة ﷺ.

عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لاَ تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلاَّ أَنْ تُشْرِكْ»[١].

الضعفاء

يأتي الضعفاء... أتباع المستكبرين وأصحاب النفوذ، يأتون بحُجَّتهم أنهم كانوا ضعفاء، مغلوبون على أمرهم كما يزعمون.. قُهروا لكي يكفروا ويفسقوا.. يقولون هذا ظنًّا منهم أنهم سيُعذَرون:

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

الكل يجتهد في إيجاد المبرر لنفسه: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١].

فطائفة تَتَّهِمُ أخرى بأنها السبب في إضلالها: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].. وطائفة تحاول الاعتذار فيُرفَض اعتذارُهم: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢].

﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

يُفاجأ المرءُ بانقطاع الأنساب، وأن ما أفنى حياته مِن أجله قد ضاع هباءً حين قدَّم أهلَه وأولادَه وسعادتَهم الدنيوية على عهد الله وميثاقه:

(١) رواه أحمد (١٩/ ٣٠٢ برقم: ١٢٢٨٩)، واللفظ له، والبخاري (٤/ ١٣٣ برقم: ٣٣٣٤)، ومسلم (٤/ ٢١٦٠ برقم: ٢٨٠٥).

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾

[المؤمنون: ١٠١].

يتذكر تعبَه، وجِدَّه واجتهاده في تحصيل أسباب الدنيا له ولأولاده، وكيف كان يظن أنه بذلك يفعل ما يرضي ربه، ليُفَاجَأ بأن الأمر غير ذلك:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٣، ٨٤].

فتُلجِمُهم هذه الحقيقة، وتَصدمهم، فلا يجدون جوابًا: ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ [النمل: ٨٥]، لتأتي الآيات التي تلي هذا المشهد لتَدحض حجج الجميع، وتبين لهم بأن الكون الدال على خالقه يكفي للتذكرة الدائمة بالله واليوم الآخر: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

[النمل: ٨٦].

تبيَضُّ وجوه، وتسوَدُّ وجوه ... ويكون اللَّوم والذَّم والتوبيخ لهؤلاء الذين اسوَدَّتْ وجوهُهُم حين يقفون على الحقيقة، ويتذكرون العهد والميثاق، وكيف أنهم قد كذبوا على الله بما عاهدوه عليه:

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ﷺ: «الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ هُمُ الْكُفَّارُ، وَقِيلَ لَهُمْ: أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ لِإِقْرَارِكُمْ حِينَ أُخْرِجْتُمْ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ كَالذَّرِّ»(١).

وقال القرطبي: «فأما الذين اسودت وجوههم: في الكلام حَذفٌ، أي فيقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟ يعني: يوم الميثاق حين قالوا: بلى»(٢).

وقال الطبري: «الإيمان الذي يُوبَّخون على ارتدادهم عنه، هو الإيمان الذي أقرُّوا به يوم قيل لهم: ألستُ بربِّكم»(٣) ؟

.. ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠].

• • •

(١) تفسير الطبري (٧/ ٩٥ تحقيق شاكر) نقلًا عن تفسير القرطبي (٤/ ١٦٧).
(٢) تفسير القرطبي (٤/ ١٦٩).
(٣) تفسير الطبري (٧/ ٩٥).

لِمَ كل هذا العذاب الأليم؟!

قد يرى البعض أن ما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة عن صور العذاب في النار، كعقاب للمكذبين والمفرطين يتجاوز بكثير حجم الجرائم والأخطاء التي ارتكبوها في حياتهم الدنيوية، فمشاهد العذاب في القرآن والسنة مروعة ومفزعة ومرعبة، وهي -من وجهة نظرهم- لا تتناسب مع ما فعله هؤلاء الكافرون والفاسقون... فالعذاب فيه مبالغة شديدة -كما يقولون.

مبعث هذا الكلام هو الغفلة عن حقيقة وجودنا على الأرض، وحالة السُّكْر التي تتلبسنا.

لكننا -بالتأكيد- حين نفيق من تلك السَّكْرة، وتنقشع سُحُب الغفلة ستجدنا نقول غير ذلك.. وستتوالى الاعترافات من الجميع بمثل ما جاء في قوله تعالى:

﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

في يوم الحساب ستتوالى الاعترافات والشهادات.. كلٌّ يشهد على نفسه أنه كان من الظالمين الغافلين الذين غرتهم الحياة الدنيا وأنْستهم هدف وجودهم على الأرض:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وبعد أن يرى أهل النار صور عذابها يأتيهم السؤال: هل هذا العذاب حق؟.. هل يطابق ويوافي جزاء مـا ارتكبتموه من تمرد وعصيان على الله؟ تجد أجوبتهم تؤكد وتؤكد على أن النار حق، وأنهم يستحقونها، مع أنه بإمكانهم الادعاء بأن هذا العقاب لا يتناسـب مع جرمهم، وأنه مبالغ فيه، ولا يستحقونه، لكنهم بعد أن انكشف عنهم حجاب الغفلة،

ورأوا حجم نعم الله التي أسبغها عليهم، وحلمه وستره وإمداده المتواصل الذي غمرهم في الدنيا.. وفوجئوا بكمٍّ الآيات والرسائل المُذكرة التي أرسلها لهم... وقبل هذا كله: تذكروا العهد الأول وما فيه من إقرارهم بحمل الأمانة ووعدهم الذي واعدوا به ربهم على القيام بها.

كل هذا، وغيره مما سينكشف أمامهم سيدفعهم بتلقائية للإقرار بأن النار حق.. وأنهم يستحقونها:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ
أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ
قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ
قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ
قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ
قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ
قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

فتستجيبون بحمده

أخي.. لو علمنا كم الرسائل والآيات المتتابعة التي يرسلها الله لنا

بالليل والنهار، وما تحمله في طياتها من تذكير بحقيقة وجودنا وأننا في سفر، ومدى حاجتنا الماسة إلى ربنا، وإلى ضرورة العودة إليه قبل فوات الأوان.

لو أدركنا كم ومحتوى هذه الرسائل لما ظن أحد أن عذاب النار لا يتناسب مع جرائم بني آدم:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ ... ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وما يمنعنا من رؤية الآيات والتعرف على ما تحمله إلا غفلتنا وسكرتنا بالدنيا:

﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٢].

وحين يفاجأ المرء -بعد كشف الغطاء- أن الله عَزَّوَجَلَّ قد أرسل إليه الآلاف من الرسائل والآيات لكنه غفل عنها ولم ينتبه إليها.. عندئذٍ سيدرك مدى فداحة الخطأ الذي ارتكبه، وسيتملَّكه الخزي والندامة، وسيقر بأن النار حق، وأن الله عَزَّوَجَلَّ حكمٌ عدل لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم.

ولئن كنا الآن لا نستوعب ذلك فلأن قلوبنا في غمرة وسكرة..

ويكفي لتأكيد هـذا المعنى أنه حين يُنفخ في الصور ويخرج الناس من قبورهم، فإن أول ما ينطقون به كاستجابة لنداء البعث هو: حمد الله..

الكفار والمشركون والفاسـقون.. الجميع سيستجيب للنداء بحمد الله.. أتدري لماذا؟!

لأنهم قد اكتشـفوا الحقيقة، وظهر أمامهم كيـف أن الله عَزَّوَجَلَّ قد سـخر لهم الكون كله، وأسـبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وساق لهم الرزق، وأرسـل الرسـل، وأنزل الكتب، وغمرهم بسـتره، وأمهلهم طويـلاً.. كل ذلك ليقوموا بأداء تكاليف الأمانـة، ويوفوا بالعهد الذي عاهدوه عليه..

وحين يكتشـفون ذلك ويدركون قدرًا من معاملة الله لهم في الدنيا مع إعراضهم عنه.. وأنه سـبحانه كان في انتظـار توبتهم، وكيف كان إمهاله وتذكيره لهم.. عندئذٍ سيلقون باللائمة على أنفسهم، ويشعرون بالحياء من ربهم، ويتوجهون له بالحمد التلقائي..

ولله المثل الأعلى: سيكون حال الجميع كحال الطالب الذي وفَّر له أبوه كل الوسائل المعينة على تحصيل دروسه، لكنه لم يستفد من ذلك، وأضاع وقته في اللعب واللهو، ولم ينتبه لنصائح والده، وحين ظهرت النتيجة، وعلم برسوبه، وتذكر كيف أسرف على نفسه وأضاع وقته رغم

الظروف المناسبة التي وفَّرَها له والدُه.

حينئذٍ ستجده مُقبلًا عليه بالتأسف والإقرار بخطئه، وشكره على ما قدَّمه مِن أجله، وأنه لم يُقصِّر أبدًا معه، بل هو الذي قصَّر واتبع هواه وغفل عن أداءِ مهمَّتِه.

هذا المثال قد يُقرِّب للأذهان حال الناس حين يُبعَثون بعد أن ينكشف عنهم الغطاء:

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٥٢].

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ [سبأ: ١].

التَّلاوُم

في بعض مشاهد يوم القيامة سيكون هناك تلاوم شديد بين الإنسان المسرف على نفسه وبين قرينه الشيطان، فيلقي الإنسان باللائمة على قرينه أنه السبب في هذا المصير السيئ الذي ينتظره، فيجيبه القرين بأنه كان لديه استعداد وقابلية للطغيان:

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [ق: ٢٧].

فيأتي الرد الإلهي بأنه سبحانه قد حذر الجميع من هذا العذاب، وكان الوعيد المتكرر في عالم الذر، وتضمنه كتبه التي أرسلها، وأنذرت به رسله:

﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ
مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٨ ، ٢٩].

لقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ جميع بني آدم بما سيحدث لهم إن هم خالفوا أمره ونقضوا العهد الذي عاهدوه عليه، وهو سبحانه يعلم أن ما كلفهم به يقع في حدود وسعهم وطاقتهم: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٢].

..إن قول البعض بأن حجم الجُرم الذي يرتكبه العاصون المكذبون في حياتهم الدنيا المحدودة لا يتناسب مع العذاب الشديد في النار.. هذا القول ينطلق من حالة الغفلة والسكرة التي تستحوذ عليهم؛ لذلك تجدهم لا ينطقون بهذه المزاعم بعد انكشاف الغطاء ورؤية الحقيقة، بل يعترفون بخطئهم، ويقرون بجرمهم:

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ
فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ
تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ
أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ
قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ
رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾

[المؤمنون: ١٠٣ – ١٠٧].

فإن قلت: ولماذا لا يُجاب طلبهم بالعودة إلى الدنيا ويأخذوا فرصة أخرى في اختبار العبودية؟!

نبَّأنا العليم الخبير الذي يعلمُ السرَّ وأخفى أنهم لو عادوا ثانية، وعاشوا على الأرض بما عليها من زينة، فسيكررون ما فعلوه لأسباب كامنة في ذواتهم... فهم حين يعودون لن يكون ماثلاً أمامهم ما حدث لهم عند الله؛ ومن ثم سيمارسون حياتهم كما مارسوها من قبل، وسيتبعون أهواءهم وشهواتهم، وسيتشبثون بالدنيا.

ولئن كان موقف الحساب شديدًا؛ فإن المشهد العظيم والعهد والميثاق كان شديدًا أيضًا، ومع ذلك لم ينتفع أغلب الناس بالحنيفية التي كانت عليها فطرتهم، ولم يستفيدوا بآيات الله، وكذَّبوا رسُلَه.

تأمل قوله تعالى في الرد على طلب أهل النار العودة ثانية إلى الدنيا:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٧، ٢٨].

• • •

بين البداية والنهاية

إن وجود القرآن العظيم بين الناس من شـــأنه أن يُقيم الحجة الكاملة البالغة عليهم، ولا يوجد عذر لأحد بلَغَهُ القرآن لكي يدعي بأنه لم يكن يعرف تلك الحقائق:

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

ولقد ورد مشهد البداية والنهاية في كثير من آيات القرآن، وتم عرض بعض تفاصيله ليتذكر جميع بني آدم العهد الأول مع الله، ويحذروا من يوم اللقاء والسؤال عن هذا العهد.

ولئن كنا في الدنيا نعبد الله بالغيب ولا نتذكر ما حدث في المشـــهد العظيم والعهد الأول؛ ولئن كنا لم ننتقل -بعد- إلى عالم الشهادة، ولم يُنفخ في الصور، ولم يبدأ الحســـاب؛ إلا أن القرآن الحكيم حاضر بيننا

ينذرنا بهذا كله ويكرره بأساليب مختلفة:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١].

فمن تلك الآيات التي بيَّنت بعض ما حدث في مشهد البداية، وبماذا أخبر الله عَزَّوَجَلَّ بني آدم جميعًا قبل نزولهم إلى الأرض:

- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ
قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ
أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ
أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ
أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].
- ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ
يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ
إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ
إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].
- ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ
فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥، ٣٦].

ومن الآيات التي تخبرنا بمشهد النهاية وما فيه من خطاب لبني آدم:

- ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ
وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ
وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ
هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ
اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [يس: ٦٠- ٦٤].

يا حسرةً على العباد

ستكشف أحداث يوم القيامة كم ظلمنا أنفسنا حين لم نحفظ الأمانة والعهد.

سيتملك الغافلين والمعرضين الخزيُّ والندمُ على هذا التفريط، وسيزداد خزيهم كلما اكتشفوا أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يكن يريد لهم هذا المصير.. بل كان يدعوهم دومًا للعودة إليه ليغفر لهم ويرحمهم:

- ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].
- ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥].
- ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠].

■ ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وفي يوم القيامة سيتأكد ويتأكد هذا المعنى:

﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤].

تأمل قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾ ... لو أنهم كانوا يهتدون لما حدث لهم ذلك.

فعقاب الله عَزَّوَجَلَّ للمكذبين كان بعد عنادهم وإصرارهم على المضي قدمًا في كفرهم، وإغلاقهم للباب الذي بينهم وبين ربهم، وإصرارهم على التولي عنه، وعدم الالتفات نحو الدعوة إلى مغفرته.

ومثال ذلك ما حدث من أصحاب القرية في سورة «يس» الذين كذبوا المرسلين وأصروا على هذا التكذيب والإعراض فحق عليهم العقاب، ليأتي التعقيب القرآني في نهاية قصتهم بقوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ [يس: ٣٠]، فالله عَزَّوَجَلَّ لا يرضى لعباده الكفر، ويريد لهم الخير، ولكنهم هم الذين لا يريدون الخير لأنفسهم، ولم ينتفعوا بحلم الله وستره وإمهاله لهم.

• • •

استجيبوا لربِّكم

أخي: تخيَّل هَوْلَ المفاجأة والصدمة علينا حين نكتشف هذا كله عند الموت ...نعم؛ فعند الموت ينكشف الغطاء، ونخلع رداء الدنيا بأسبابها وما اكتسبناه فيها، ونعود كما بدأنا:

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩].

عند الموت نتمنى الرجوع إلى الدنيا لتنفيذ العهد والميثاق:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ...﴾[المؤمنون: ٩٩ ، ١٠٠].

وفي القيامة ... يوم العودة والسؤال تكون الكلمة المشتركة بين أغلب البشر: يا ليتني.

﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر: ٢٤].

﴿يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٧].

﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٨].

﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠].

﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥].

أمر مُرعِب ... لُطفكَ يارب ... رحمتك يارب ... أنِرْ بَصيرتَنا، وأيقظ قلوبَنا، قبل فوات الأوان، أرنا الدنيا على حقيقتِها، واجعل هذه الكلمات حُجَّةً لنا لا علينا:

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧].

• • •

> **لئن كانت البداية هي العزمُ الصادقُ على الإفاقة مِن سَكرةِ الدُّنيا، وأننا على سَفَرٍ إلى الآخرة، ومِن ثَمَّ التشمير لتدارك ما فات والسير في طريق الاستقامة إلى الله؛**

فليكتُب كُلٌّ منَّا ما سيفعلُه لترجمةِ ذلكَ عمليًّا:

✍..

....

....

....

....

....

....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

رحلة الحياة **٥**
بداية الرحلة ٨
القطار ١٠
البداية **١٣**
العرض والقبول ١٤
الرب الودود ١٦
العهد والعقد والميثاق ٢٠
طبيعة الاختبار ٢٢
وظيفة الرسل ٢٨
القرآن والتذكير بالعهد الأول ٣٠
النزول إلى الأرض **٣٧**
عند الموت تنكشف الحقيقة ٣٩

كشف الغطاء..... **٤٣**
القدوم على الله ٤٦
النهاية..... **٥١**
يوم الحشر ٥١
الغضب الإلهي..... ٥٤
هل هناك فداء؟!..... ٥٧
الضعفاء..... ٥٨
لِمَ كل هذا العذاب الأليم؟! **٦١**
فتستجيبون بحمده..... ٦٣
التَّلاوُم ٦٦
بين البداية والنهاية..... **٦٩**
يا حسرة على العباد..... ٧١
استجيبوا لربكم **٧٣**
فهرس الموضوعات **٧٧**

• • •

تم بحمد الله